الفصل العاشر

فى أخبار ساقها التصنيف ونوادر جرها التأليف(*)

□ لماذا بكى مَسْلمة ؟! :

لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دعا بنيه ، فكانوا أحد عشر آبناً ، وكان عنده مسلمة بن عبد الملك ، فأحضر عمر بن عبد العزيز أحد عشر ابنًا وأحضر أحد عشر دينارًا ونصف دينار ، فأمر أن يُكَفّن ويُشْتَرَى له مكان يُدفن فيه بخمسة دنانير ، ويقسم الباقى على بنيه ، وقال :

يابَنِّي والله ليس لى مال فأوصى لكم به ، ولكنى ما تركتُ لأحدٍ علىّ تبعة ولا لأحدٍ ثأر فى مالٍ ولا عِرضٍ ولا دَمٍ ، واللهُ الخليفة عليكم .

فقال له مسلمة : وما ذاك ياأمير المؤمنين أَوَخَيْرٌ من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : تأخذ من مالى ثلاثمائة دينار فنقسمها بينهم كما تريد ، قال عمر : أو خير من ذلك ؟ قال : وما هو ياأمير المؤمنين ؟ قال : ترد المال إلى من أُخذَ منه ! فإنه ليس بملكك ، قال : فبكى مَسْلَمةُ عند ذلك !! .

□ أبناء عمر بن العزيز بعده ! :

وقيل : ما رؤى أحد من أولاد عمر بن عبد العزيز إلاوهو غنى ، ولقد شُوهد أحدهم وقد جَهّز فى سبيل الله مائة فارس على مائة فرس من خالص ماله ! .

□ وأبناء مسلمة من بعده ! :

ولما حضرت مسلمة بن عبد الملك الوفاة – وقيل هشام بن عبد الملك – ترك أحدعشر ابنًا أصاب كل واحد من تركته ألف ألف دينار ، ويقال : إنه

(*) استغنينا عن ذكر الفصل التاسع لما شابه من أخبار لا يصدقها عقل ، ولا جدوى من نشرها ، فلزم التنويه .

مارؤى أحد منهم إلاوهو فقير ، ولقد شوهد بعضهم وهو يوقد فى تنور الحمام بعد ذلك[1] بسبع سنين .

□ عندما يزول الملك ! :

وعبد الله بن مروان – وهو آخر ملوك بنى أمية – قال : لما زال ملكنا وملكت بنو العباس هربت إلى أرض النوبة مع جمع من أصحابى ، فسمع بى ملك النوبة فجاءنى إلى المكان الذى كنت فيه ، فجلس على الأرض ولم يجلس على فراشى ، فقلت له : هلا تجلس على فراشنا أيها الملك ؛ فإنه لم يعتد لك[2] ههنا فراش ، فقال : لا ، قلت له : ولم ؟ قال : لأنى ملك وحقيق على الملك أن يتواضع إذا رفعه الله ! .

ثم قال : أخبرنى لم شربتم الخمور وهى محرمة عليكم ؟ .

ولم وطئتم الزروع بدوابكم والفساد محرم عليكم ؟ .

ولم استعملتم أوانى الذهب والفضة وهى محرمة عليكم ؟ .

ولِمَ لبستم الحرير وقد نهيتم عنه على لسان نبيكم ؟ .

قال عبد الله : فقلت له : إنا لما قَلّتْ أنصارنا استعَنّا بقوم أعاجم دخلوا ديننا ففعلوا ما ذكره الملك على غِرّة منا ! .

فأطرق الملك ساعة ثم رفع رأسه وقال : ليس الأمر على ما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم ، وظلمتُم إذ ملكتم ؛ فسلبكم الله العزَّ بذنوبكم ، ونقمة الله فيكم لم تبلغ مداها ولا وصلت غايتها ، وأنا أخاف أن يحل عليكم غضب من الله وأنتم فى أرضى فيصيبنى معكم ! والضيافة ثلاثة أيام فتزودوا فيها بما شئتم ، وارتحلوا فوالله لن تقيموا عندى بعدها !! .

□ العقلاء من النساء :

لما تزوج الحارث بن عوف الكندى الخنساء بنت ملجم وكانت ذات حسن وجمال فائق ، فلما زفت إليه أمسكتها أمها على باب المحمل ، وقالت : أى بنية ، إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، أو جودة حسب لتركتها عندك

---

(١) أى يعمل لدى صاحب حَمّام حيث يقوم بإشعال الوقود لتسخين الماء للاستحمام وهى من أدنى المهن .

(٢) لم يتم إعداد فراش لك من قبل ولم نتهيأ لاستقبالك بما يليق بك .

لما أعلمه من حُسْنِ أدبك ، وفضل حسبك ، وجودة عقلك .

أىْ بُنَيّة ، لو استغنت امرأة عن زوج لحاجة أبيها إليها لكنتِ أغنى الناسِ عنه ، ولكنهن للرجال خلقن ، كما أن الرجال لهن خلقوا ، وإنك خرجت من العش الذى كنت فيه درجت ، ومن البيت الذى فيه نشأت إلى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه[1]، فكونى له أمة يكن لك عبدًا ، واحفظى خصالاً منِّى لتبلغى بها أمراً وتنشرى بها ذكراً .

يابنية عليك بحسن الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بالسمع والطاعة ففى القناعة راحة للقلب ، وفى الطاعة رضى الزوج والرب ، والتفقد لموضع عينه وأنفه[2]؛ فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلاأطيب ريح .

واعلمى يابنية أن الكُحْل هو الحُسن الموجود ، والماء هو أطيبُ الطيبِ المفقود ، والرعاية لعياله والحفظ لماله ، ورعاية ماله وعياله حسن التدبير ، وحفظ ماله حسن التقدير ، والتفقد لوقت طعامه ، والهدوء وقت منامه ، فإن حر الجوع ملهب وتنغيض النوم مغضب ، ولا تفشين له سرًّا ، ولا تعصين له أمرًا ، فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أَحْرجت صدَره ، ولا تظهرى الفرح إذا كان تَرِحًا[3]، ولا الاكتئاب إذا كان فرحًا ، ولئن زدتيه إعظامًا زادك إكرامًا ، وآثرى[4] هواه على هواك ! .

وعندما زفت إليه حظيت عنده وولدت منه أربعة ملوك وهم شرحبيل ، وحجر ، ومسلمة ، ومعدى كرب[5].

□ متى تمنى الحجاج أن الأرض تبتلعه ؟! :

ولما قدم الحجاج بن يوسف الثقفى على الوليد بن عبد الملك – وهو يومئذ خليفة – فوجده قد أصيب بابنه وهو فى المقبرة ، وكان الحجاج يومئذ عليه دِرْع وكِنانة وهو متقلد بقوس عربية ، فعمد إلى قبر عبد الملك بن مروان فسلم عليه وصلى ركعتين ، فلما ركب الوليد مشى الحجاج بين يديه ، فقال

---

(١) العُش الذى فيه درجت : بيت أبيك الذى حبوت فيه وكانت خطواتك الأولى أما القرين فالمراد به الزوج الذى سيقترن بك ، ويعقد قرانه عليك .

(٢) تتبعى باهتمام بالغ مواضع العينين والرؤية ، وأماكن العرق والتى تكون مصدرا للروائح ! .

(٣) الترح : الحزن . (٤) آثرى : فَضِّلى . (٥) انظر تحفة العروس مكتبة ابن سينا .

له الوليد : ياأبا محمد اركب ، فقال : دعنى ياأمير المؤمنين أستكثر فى المشى فإن ابن الزُّبَيْر وابن الأشعث طالما شغلانى عنه ، وكان قد قتلهما ، فعزم عليه أن يركب ، فركب ودخل الوليد إلى قصره فخفف ما كان عليه ، ثم أذن للحجاج أن يدخل فدخل وخلابه وطال حديثه معه !

فخرجت جارية من وراء الستر وساررته ومضت ، فقال للحجاج : أتدرى ما قالته الجارية ياأبا محمد ؟ قال : لا ، قال : بعثت إلىّ أم البنين تقول لى ما مجالستك لهذا الأعرابى المشتمل فى سلاحه وأنت فى غلالة[1]؟!. فأعلمتها أنك الحجاج فراعها ذلك ، فقالت : والله ما أحب أن يخلو معك وقد قتل الخلق ! .

فقال الحجاج : دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول إنما المرأة ريحانة وليست بقَهْرَمَانة[2] فلا تطعهن فى غير ذلك فيُوهنك ، ولا تشغلهن بغير زينتهن ، وإياك ومشاورتهن فإن رأيهن إلى[3] أفن وعزمهن إلى وهن ، واكفف عليهن أبصارهن بحجبك إياهن ، ولا تملك المرأة من الأمور ما تجاوز نفسها ، ولا تطعها حين تشفع فى غيرها أبداً ، ولا تطل الخلوة معهن فإن ذلك أوفر لعقلك وأبرز لفضلك .

ثم خرج ودخل الوليد على « أم البنين » زوجته فأخبرها بمقالة الحجاج ، فقالت : ياأمير المؤمنين أحب أن تأمره غداً – إن شاء الله – بالدخول علىّ عند دخوله إليك ، قال : نعم ، فلما أصبح الحجاج أتى الوليد فسلم عليه فقال له : ياأبا محمد اذهب إلى أم البنين فسلم عليها واقضِ من حقها ما يجب ، فقال الحجاج : ياأمير المؤمنين أعفنى من ذلك ، قال : لابُدّ ، فنهض الحجاج حتى تجاوز الستّرَ فحُجِبَ على الباب طويلاً ! ثم أُذِنَ له فدخل ولم يؤذن له فى الجلوسِ فبقى قائمًا طويلاً ، فقالت : ياحجاج أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث ؟، والله لولا أنك أهون على الله تعالى من سائر خلقه ما ابتلاك برمى أحجار الكعبة ! ، ولا بقتل ابن الزبير وابن

---

(١) الغلالة : ثوب رقيق .

(٢) القهرمانة : مدبرة البيت ومتولية شئونه . قال فى المعجم الوسيط : ومنه القول المأثور : « المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ».

(٣) الأفَن : فساد الرأى بسبب نقص العقل ، والوهن الضعف .

الأشعث ، فأما ابن الزبير فهو أول مولود فى الإسلام ، وأما ابن الأشعث فوالله لقد وَالى عليك الهزائم حتى ضجرت[1]، ولولا أن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نادى فى الشام وأنت فى أضيق من قراب من خيل ابن الأشعث ، وقد أظلتك رماحهم ، وفاجأك كفاحهم ما قويت عليه ، وما قمت .

وأمَّا ما أشرتَ به على أمير المؤمنين من تركه لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه ، فإن كنَّ يَنْفَرِجْنَ عن مثل ما انفرجت عنك أمُّك فما أحقَّه بالأخذ والقبول منك ! وإن كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فإنه غير قابل لقولك ولا مُصْغٍ لمشورتك ! .

ثم نادت : أخرجوه عنى قاتله الله !، قال : فدُفِعَ وأُخْرِجَ ، فمر على أمير المؤمنين الوليد ، فقال : ياأمير المؤمنين ألم أسألك أن تُعْفِيَنى من الدخول عليها ؟!، قال : فماذا قالت لك ؟ قال : والله ما سكتت عنى حتى تمنيت أن الأرض تبتلعنى ! .

□ على رِسْلِك ياهذا ! :

قال بعضهم : كان رجلٌ أشيبَ اللحية يسير ، فبينما هو يمشى إذ رأى امرأة تمشى ذاتَ حُسنٍ وجمال فقال لها : ياهذه إن كنت عازبة فأنا أتزوج بكِ ، وأدفعُ لكِ ما تختارين ! .

وإن كنت متزوجة فبارك الله لزوجك فيك ، فقالت : ليس لى زوج لكننى فى رأسى يَسِيرُ بياض[2] وأظنك تكره ذلك ، قال : نعم وتركها ، فقالت : على رِسلك[3] ياهذا والله ما بلغت من العمر عشرين سنة ، ولا برأسى بياض ، وإنما أُعْلَمتُك أنى أكره منك ما تكره منى .

[من أقوال الإمام علىّ فى النساء]

قال على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – وقد ذكرت النساء عنده : « لا تتخذوا النساء على حالٍ ، ولا تأمنوهن على مَالٍ ، ولا تدعوهن يدبرن

---

(١) ضجرت : مللت وضقت بأمرك وتبرمت .

(٢) بياض قليل فى شعر رأسى .

(٣) على رسلك : تمهل ، وتوقف ، ولا تتمادَ فيما أنت فيه ! .

أمرَ العيال ؛ فإنهن إن تُرِكْنَ وما يُرِدْن أفْسَدْنَ المسالك وأوردن المهالك ؛ فإنَّا وجدناهن لا وَرَعَ لهن عن شهوتهن ، يتلهفن على العصيان ، ويتمادين على الطُّغيان ، يُنكرن الكثير إذا مُنِعْن القليل ، ينسين الخير وَيذكُرن الشر ، أما صوالحُهنَّ فغادرات ، وأما طوالحهن[1] ففاجرات ، وأما المعصومات فهن المعدومات ، إن ائتُمِنّ على مالٍ ضاع ، أوسرٍّ شاع ، فاستعيذوا بالله من خيارهن وكونوا من شرارهن على حذر ! » .

□ من تختار لولاية الناس ! :

وقال يحيى بن خالد لولديه جعفر والفضل : يابنى إنكم لاتستغنون فيما تَلِيَانى من الأعمال عن العمال والكتاب ؛ فلا تستعينوا إلاالأشراف ،وذوى الأقدار فإن النعمة عليهم أبقى ، وهى بهم أحسن ، والمعروف عندهم أشهر ، والشكر منهم أكثر ، والسّفل من الناس بخلاف ذلك .

□ الثقلاء مصدر عذاب للنفوس ! :

كان حماد بن سلمة إذا رأى من يستثقله يقول : ﴿ **رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُون** ﴾ [الدخان : ١٢]

□ آية نزلت فيهم ! :

وقالت عائشة – رضى الله عنها – : نزلت آية فى الثقلاء وهى : ﴿ **فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ** ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

□ سؤال عنهم ! :

وقيل لجالينوس[2]: لم كان الرجل الثقيل أثقل من حَمْل الميت ؟ قال : لأن حمل الميت ثقله على الأرض ، والرجل الثقيل ثقله على القلب .

□ هدية ثقيل ! :

وأهدى رجل ثقيل إلى رجل جملاً ، فقال فيه هذه الأبيات :

ياقادمًا أهدى جمل ... خُذْ وارتحل ألفى جمل

(١) الطوالح : عكس الصوالح . وهن من لا خير فيهن .

(٢) جالينوس أبو الطب فى عصره ، وله مؤلفات فى الطب والفلسفة سردها ابن النديم فى الفهرست (ص ٤٠٢ – ٤٠٣) .

قال : وما أوقارها ؟ قلت : زبيبٌ وعسل[1]
قال : فمن يقودها ؟ قلت له : ألفابطل
قال : ومن يسوقها ؟ قلت له : ألفا رجل
قال : فما لباسهم ؟ قلت : حُلِيّ وحُلَل
قال : وما سلاحهم ؟ قلت : سيوف وأسل[2]
قال : عَبيد لى إذن ؟ قلت : عبيد وخَوَل[3]
قال : بهذا فاكتبوا عليكم لى إذنْ سِجِلّ
قلت له : ألف سجل واضمن لنا أن ترتحل
قال : تُرى أضجرتكم ؟! قلت : أجل ثم أجل[4]
قال : ترى أثقلتكم ؟! قلت : نعم فوقَ الثقل !
قال : فإنى راحلٌ قلت : العَجل ثم العَجل
ياجبلاً من جبل فى جبل فوق جبل

□ هكذا الثقيل لا يكاد يُسَلّم حتى يعود ! :

وقيل فى ثقيل آخر هذين البيتين :

وثقيل قد سئمنا شخصَه عهدناه مُلِحًّا مُبْرِمَا
ثِقَلُ الوَطْأة فى زَوْرَته ثم ما وَدّع حتى سَلّما

□ هل يغنى العقل عن المشورة أو الزوج ؟ :

قال بُزُرْجِمِهر[5]: أعقل ما يكون من الرجال لاغنى له عن رأى ذى لبٍّ ومشاورة ذى عقل ، وأعقل ما يكون من النساء لا غنى لها عن زوج .

□ هل للنساء أمان ! :

وجدت عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال : لما ملك أردشير بلاد العجم واستوثق له الأمر ، ودانت له ملوك الطوائف ، حاصر ملك السوريانية ، وكان

(١) أوقارها : أحمالها جمع وَقْر .
(٢) الأسل : الرماح . (٣) خَوَل : خدم .
(٤) أضجرتكم : سببت لكم ضيقاً ومَلَلاً .
(٥) هو ابن البختكان ، حكيم فارسى .

ملكاً عظيماً تحصن في مدينة يقال لها « الحصر » وأقام أردشير يحاصر المدينة زمنًا طويلاً إلى أن أيِسَ منها ، ولم يقدر عليها وأشرفت ابنة الملك تنظر إلى عسكره ، وكان أردشير شابًا حسنًا ، فرأته ابنة الملك فوقع حبه في قلبها ، فأخذت[1] نُشّابَةً وكتبت عليها : إن أنت شرطت على نفسك أن تَتَزَوَّجَني دَلَلْتُك على موضع تأخذ منه المدينة بأخف كلفة وأيسر حيلة ، ثم رمت بالنشابة إليه ، فأخذها أردشير وقرأها وكتب عليها : لك ذلك وكلُّ ما تريدينه ثم رمى بها إليها ، فكتبت له ، ودلته على موضع في المدينة ، وعرفته كيف يأتي إليها وكيف يفعل في دخولها ، فأرسل عسكره إلى المكان الذي دلته عليه ، وفعل ما قالته ، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها وملك المدينة ، وقتل الملك ووفى ابنته كما شرط لها ، فبينما هي ذات ليلة على فراشها إذ قلقت قلقًا شديدًا ، ولم تنم ، فقال لها أردشير : ما بالك لا تنامين الليلة ؟ فقالت : تغير في جسدي وأحس بشيء يؤلمني في فراشي ، فنظر الملك في فراشها فإذا فيه ورقة آس قد أثرت في رقة جلدها وبشرتها ونعومة جسدها ، فقال لها أردشير : ما كان أباك يطعمك ؟ قالت : كان أبي يطعمني الزبد والشهد والمخ ! .

فقال لها : ويلك ، وهل تجدين أحدًا يبلغ بك من الكرامة واللطف إلى هذا الحد وكان جزاؤه عندك ما علمته منك !، فلست آمنك بعد اليوم ، ثم أمر بها أن يعقد شعرها في ذيل فرس شديد الجرى ، ففعل بها وأطلق الفرس فتساقطت أعضاؤها وهكذا كان جزاء عديمة الوفاء !

والحمد لله أولا وأخيراً

قال ناسخه :

وقد تم نسخ هذه النسخة ليلة الاثنين لخمس خلت من شهر ذي القعدة سنة ١٢٢٠ اهـ على يد أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد وقال محققه :

وقد علقت عليه ، وعنونت لقصصه ، وضبطت شواهده بعد الرجوع إلى مصادر تلك الأخبار ، وكان ذلك في السادس عشر من شهر ذي القعدة سنة ١٤١٣ هجرية والله نعم الموفق ..

محمد إبراهيم سليم

---

(١) النُشّابة واحدة النُشّاب وهو النّبل .

(٢) الآس : شجر دائم الخضرة بيضي الورق ، أبيض الزهر .